

الجبروت

والبرجوازية الصغيرة

د. محمود متولى

ومن ثم كان الانتاج للاستهلاك فقط والاستهلاك الكفائى بصفة أساسية . ولكن رغم كل ماسبق ... ورغم العلاقة السطحية التى كانت تربط السلطة العثمانية بالمصريين والتى لم تخرج عن علاقة جمع الضرائب ليس الا .. رغم كل ذلك فقد خرجت نماذج من المصريين مثل ما يمكن تجاوزا أن نطلق عليه اسم البورجوازية المصرية ولكن لم تتح لها فرصة الحركة طويلا ذلك أن نظام محمد على الاحتكارى ورأسمالية الدولة التى قادها قضت على بذور وارهصات تطلعات الطبقة البورجوازية المصرية فى ذلك الوقت والتى تقسم محورا ثلاثيا هم المشايخ والأعيان والتجار . والتجار .

وقد جاء فى كتابات الجبروتى وغيره من المعاصرين - فيما بعد - الكثير عن طبقة المساكين والأعيان وكبار القوم وهذه الدراسة مجرد محاولة للاستقراء

مما لاشك فيه أننا نخرج على النطاق التاريخى والموضوعية التحليلية عندما نفترض وجود بورجوازية مصرية فى عصر الجبروتى ذلك أن فكرة الطبقة الوسطى - المصرية - وهى الترجمة الفنية لكلمة البرجوازية كانت لا توجد قط فى ظروف مجتمع متخلف تخلفا عقليا واجتماعيا واقتصاديا معزول عن التيارات المعينة به .

ولقد ساهمت عوامل اقتصادية فى تحطيم عملية نمو ونشأة بورجوازية مصرية ... ومن ذلك سيطرة المالك على المقدرات الاقتصادية لمصر والتى وصل بها الى حد الانهيار الاقتصادى بعد كشف رأس الرجاء الصالح وتحول طرق التجارة التقليدية الى مراكز أخرى ومنها أيضا عزلة مصر الاقتصادية وغياب السلطة القيادية على التوجيه الوطنى للاقتصاد القومى . وكان الاقتصاد المصرى فى حالة سكون Static Economy

التاريخى للبورجوازية المصرية كما تمثلت فى كتابات الجبرتى مع الوضع فى الاعتبار أنها لن تقتصر على البورجوازية بمعناها التقليدى أى طبقة وسطى بل بما صار الأمر عليه وهو الطبقة المالكة اقتصاديا لوسائل الانتاج بل وسوف نحاول أن نضفى فكريا فوق ذلك بتحليل عناصر البورجوازية ليس فقط فى أنها طبقة اقتصادية بل طبقة فكرية أيضا .

الظروف الاجتماعية والاقتصادية لعصر الجبرتى :

من كتابات الجبرتى يتضح أنه أشاد فيها بالدولة العثمانية من أول وهلة ونحن الباحث المدقق يدرك أن الجبرتى فى واقع الأمر كان يكره الاساليب العثمانية فى الحكم وأنه ان كان قد جامل « يوسف باشا » الصدر الأعظم فلأنه كان تحت تغدير أن العثمانيين هم الذين طردوا «الفرنسيين» من مصر وكان الجبرتى يحقنر المماليك ويعفث تصرفاتهم فى الحكم والادارة .. وكثيرا ماكان يرثى لأحوال المصريين ويحاول الدفاع عن العامة وان كان لايمنع ذلك أنه أيضا كان يسخر من الرعاع ومن سذاجتهم . وان نأى الجبرتى قد أعجب بالفرنسيين الا أنه أيضا سماهم الكفرة ولم يصل حد إعجابه قط إلى درجة أن ينسى مساوئهم وبعض ما أتوه من أفعال سيئة خلال حكمهم مصر فى مدة ثلاث سنوات وواحد وعشرين يوما .

ولاشك أن الجبرتى قد تأثر لاضطهاد المصريين وإلغاء ذواتهم وعدم الاكتراث لوجودهم ومع ذلك فان الجبرتى كان يمثل صورة من التعالى سواء الفكرى أو الطبقي ومن هنا يمكن اعتبار الجبرتى نفسه بورجوازيا تمثلت فيه الزاويتان البورجوازية الفكرية والبورجوازية الاقتصادية . كيف لا ... وقد كان من أسرة اشتهرت بالعلم والوجاهة وعرفها المستقلون بالدنيا والدين .

أى أن الجبرتى كان بورجوازيا ولكنه غير مستقل ومتعاطف وان كان يستتكف بعنف تصرفات الرعاع الا أن ذلك لم يكن يمنعه من الدفاع عنهم أمام ظلم الحكام وجبرونه فى كتاباته .

ومع أن تاريخ الجبرتى به مادة لا بأس بها بالنسبة للطوائف الأخرى كالتجار وأصحاب الحرف وأهل اللمة الا أن تصويره يتركز سواء فى تاريخه أو فى تراجمه على مجتمع العلماء والمجتمع المملوكى .

ونرى الجبرتى فى عجائب الآثار يحمل على حكم البكوات المماليك أولا وعلى الحكم الفرنسى ثانيا وعلى الحكم العثمانى الذى أعقب خروج الفرنسيين ثالثا ، ليس هذا فقط بل أنه يعتبر أن الحكم العثمانى أشد وطأة من حكم البكوات المماليك ، ومن هنا كانت نظرة الجبرتى المتشائمة من تطورات الاحداث فى مصر ومائلته من أن رأيه فى النهاية كان يعنى أن الأحوال فى مصر تسير من سييء إلى أسوأ .

ويمكننا أن نلخص الظروف الاجتماعية والاقتصادية لعصر الجبرتى : -

أنه مع بداية القرن ال ١٦ كانت مصر قد فقدت مركزها بصفتها ممرا ووسيطا للتجارة الدولية وأدى ذلك لضياع مكاسبها وتدهور وضعها المالى وانتهى الأمر بها الى عزلة اقتصادية وفكرية عن بقية العالم ، ولم تلبث تلك الحالة أن ازدادت جمودا ورتودا

بسبب الفتح العثماني سنة ١٥١٧ والذي كان من أهم مظاهره إهمال العدل وطرق النقل تبعه تدهور التجارة كما أدى أيضا إلى إهمال الصحة والتعليم وبقيّة المرافق العامة وبخاصة الري والصرف مما أدى إلى تدهور الزراعة وساعد على هذا أيضا زيادة الأعباء الضريبية على الفلاحين واستغلال الملتزمين لهم . وقد ترتب على ذلك ضعف المحصول وانتشار الجاعات في بعض السنوات كما أسهم ذلك في تدهور المبادلات الخارجية فقد اقتصر الصادرات على عدد محدود من المنتجات مثل الأرز والقمح والقطن والكتان .

وقد عمدت الرأسمالية التجارية الأوروبية في القرن الـ ١٨ إلى محاولة إعادة النشاط التجاري إلى البحر الأحمر ، فقد عقدت لذلك شركة الهند الشرقية (البريطانية) في سنة ١٧٧٥ معاهدة مع محمد بك أبو الذهب بفرض فتح ميناء السويس أمام التجارة الإنجليزية القادمة من الهند وبفرض إعطاء بعض الامتيازات للتجار الانجليز كما تمكنت فرنسا من عقد معاهدة مشابهة مع أمراء الماليك واشتدت المنافسة بين إنجلترا وفرنسا في هذا المجال حتى تمكنت إنجلترا سنة ١٧٩٢ من إلغاء المعاهدة الفرنسية ومن عقد معاهدة بريطانية شبيهة بمعاهدتها السابق عقدها سنة ١٧٧٥ غير أن محاولات الدولتين لبسط نفوذهما التجاري على مصر قد انتهت بالفشل وذلك بسبب تنافسهما وبسبب معارضة السلطان العثماني وعدم احترام أمراء الماليك لهذه المعاهدات . وهكذا تدهورت الأحوال في مصر العثمانية قبيل قدوم الحملة الفرنسية ويعزى ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسية في نظرنا : -

- ١ - عجز الحكم العثماني الإقطاعي من أن يحدث تغييرا في حياة المجتمع المصري .
- ٢ - أفراد البيوت المملوكية بالسلطة وحروبهم المستمرة وتنازعهم على السلطة .
- ٣ - عزلة مصر من الناحيتين التجارية والحضارية .

ونتيجة لكل ذلك كان السواد الأعظم من السكان يعيش في حالة يرثى لها من الفقر وكان النظام الاقتصادي بسبب الفوضى وتنازع أصحاب المصيبات الحربية على السلطة في حالة سكون وكثيرا ما «انقطعت المواصلات بين أجزاء القطر بسبب الحروب والثورات فلا يجد الفاض من حبوب الوجه القبلي طريقه إلى الشمال حيث تعظم الحاجة إليه» .

وما زاد الطين بلة كثرة الضرائب التي أرهقت كاهل القوى المنتجة وكانت طريقة الجباية تثير حفيظة الناس فكثيرا ما اقترن طلب المغارم بالتهديد والوعيد والقاء القبض على الكثير من «مسائير الناس والتجار والتسبيين وحبسهم ومصادرة أموالهم وتكليفهم بأضعااف ما يمكنهم دفعه» .

وتمثلت هذه القوى المنتجة في التجار والصناع في المدن والفلاحين في الريف وكل ذلك أضعف الحوافز للإدخار والاستثمار وعزهم عن تكوين ثروات كبيرة تجد طريقها للاستثمار المنتج وكان ذلك بالطبع سببا في قلة عدد القادرين على انشاء المشروعات وتمويلها .

والواقع الذي يجب أن نعترف به ونؤكد ، كما سبق أن ذكرنا ، أن الصلة الوحيدة بين الشعب المصري وحكامه كانت تقوم على نظام الضرائب وكانت كل فئة تجارا أو زراعا أو صناعا منظمة تنظيميا مستقلا في هيئات مشرعة هي التي عرفت بالطوائف لكل منها قياداتها الخاصة وكان الولاء للطائفة يفوق كل ولاء .

وكانت العلاقة بين المالك والشعب المصرى قائمة على حذر وعدم ثقة وخوف واحتقار متبادل وانعكس ذلك كله على الوضع الاقتصادى والاجتماعى فى مصر وليس أصدق من المربى فى وصف ذلك الوضع :-

«... وصارت المالك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا وأشجعهم نفسا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم اعراضا عن الدين... ما فيهم الا من هو أدنى من قرد والص من فارة وأفسد من ذئب.. لا جرم أن خربت أرض مصر وانشام من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات بسوء ابالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الامر حتى أنه ما من شهر الا ويظهر من الخلل ما لا يتدارك فرطه» .

وبالنسبة لمجال النشاط الصناعى فى ظل العصر العثمانى فقد تدهورت احوال الصناعة ولم تكن تزيد عن بعض أنواع النسيج والأغذية وبطرق بدائية وعتيقة وركزت كل حرفة فى حى قائم بذاته فهناك أحياء للصناعة الخاصة بالصباغة والسروجية والتحاشين وغيرهم ، وكانت القاهرة وأسيوط أهم مركزين للصناعة وكانت المصانع - ان جاز لنا أن نطلق عليها هذا الاسم - صغيرة الحجم ضعيفة رأس المال قليلة الايدى العاملة حتى أن العمل كان يقتصر فيها على شخص صاحبها أو ينم بمعونة بعض العمال القليلين ولاينفى ذلك أن تلك المصانع كان فيها بعض الكبر الحجم نسبيا وكانت الصناعات غالبا ماتنتج للسوق المحلية القريبة منها وان كان هذا لا يمنع أن بعض المصنوعات بنسبة محدودة جدا كانت تصدر للخارج ، ولكن لصعوبة المواصلات واضطراب الأمن وكثرة التكاليف ، فقدت القدرة على المنافسة . وكان من الصعوبة ظهور الطبقة البورجوازية فى مجال الصناعة المصرية فى ذلك العصر بسبب ضعف القوى الشرائية من ناحية وضيق السوق من ناحية أخرى وفقدان القدرة على الابتكار وعدم وجود مبادئ أو أفكار علمية تمهد لقيام أى تطور صناعى هذا الى جانب اضطراب الامن وتحول مصر من دول الصف الاول الى دول الصف الثانى ومارتبت على ذلك من اضمحلال فى كل مرافقها أدى الى ضعف الصناعة فيها ، فعدم وجود استثمارات والجهل بأساليب التطور الحديثة وماسيطر على الصناعة من نظام حرفى كل ذلك عاق ظروف التطور الطبيعية نحو الرأسمالية التى هى عماد البرجوازية . كما أن الاوضاع الزراعية كانت لاتساعد على وجود طبقة ورجوازية مصرية لان ملكية الارض كانت بيد الملتزمين وفوق ذلك كان الدخل الزراعى كلية يذهب الى يد القرباء عن مصر .

ولم يكن هناك مجال لنمو طبقة بورجوازية فى مجال الادارة المصرية ، التى كان المصريون بعيدين عنها ولكن كان هناك مجالان لنمو وتكوين البورجوازية المصرية وهما مجال العلماء ومجال التجارة .

فقد كان التجار يسهمون فى تمويل الصناعات وظهر فى صناعة النسيج نظام تمويل الصناعة يشبه نظام Merchant Employees الذى كان قائما فى أوروبا ، حيث كان تجار العاصمة يقومون بتوزيع القطن على النساء الغزالات فى القرى والمدن لغزله فى منازلهن فى وقت الفراغ ومن ثم ترسل خيوط الغزل الى النساكين والى المصانع تحت اشراف التجار ، وبالمثل اعتاد تجار دمياط استيراد الحرير الخام من بلاد الشام وتمويل المشتغلين بغزله ونسجه ، وتخصص بعض التجار فى تمويل صناعات أخرى مثل الحصر فى قرى الريف . وتمويل التجار يشبه تماما تلك المصانع الصغيرة التى تحولت الى

المصانع الكبيرة ولكن ذلك لم يثن مصر بسبب بقاء طرق الانتاج دون تطوير وقلة المدخرات وضعف الاستثمارات وعدم وجود أفكار علمية للتغيير المطلوب ، كل ذلك يضاف اليه فساد النظام الحاكم .

ورغم أن الحياة سواء في الريف أو المدن لم تكن تشجع حركة التبادل التجارى حيث كانت تقوم هذه الحياة في القرى على مبدأ الاكتفاء الذاتى الى حد كبير ، وفي المدن كان انخفاض الأجور وهبوط مستوى المعيشة سببا في ركود حالة التجارة لكن ذلك لم يمنع من وجود نوع من التبادل بين القرية والمدينة ولتيسير ذلك كان لكل بلدة سوقها فظهرت بعض المدن التى اكتسبت مزايا خاصة فى مجال التجارة الداخلية نظرا لموقعها وشهرتها فى انتاج سلعة معينة ولكونها مراكز ذات صفة زينية كطنطا ، ودسوق .

وقبيل الحملة الفرنسية وصلت التجارة الداخلية الى حالة من الفوضى والكساد ولعل ذلك نتيجة لعدة أسباب تراكت ولكن أهمها عدم استتباب الامن وانتشار عصابات الطرق والفتن وكثرة الرسوم الداخلية المفروضة على المتاجر (مثل الدخولية - وعوائد النهر) مما رفع أسعار السلع ، هذا الى جانب انحطاط القوى الشرائية لجمهور المستهلكين وفوضى النقد - الذى كان معروفا بصورة متواضعة - وكثرة تغيير النقود وغشها مما أساء الى عملية البيع والشراء .

أما بالنسبة للتجارة الخارجية فقد كانت كنتيجة طبيعية للتدهور فى الصناعة والانحطاط فى الانتاج الزراعى فى حالة يرثى لها لعدم وجود فائض للتبادل مع العالم الخارجى .

ولكن وجدت طائفة من التجار المصريين - رغم هذه الظروف - الذين جمعوا ثروات ضخمة من تجارتهم الواسعة واتصالاتهم بالدول التى تحيط بمصر تجاريا .

وفيما يلى تحليل للبورجوازية المصرية ومجالات تكوينها نبدأها بالمجال التجارى .

البورجوازية المصرية التجارية فى عصر الجبرتنى :

قلنا ان البورجوازية المصرية انعدم تشكيلها فى مجال الزراعة وأيضا فى مجال الصناعة ولكن نمت بورجوازية مصرية فى المجال التجارى ونذكر أهم ملامحها فى السمات التالية وهى نفس السمات التى تشترك معها بقية فروع البورجوازية المصرية الأخرى وألتي سيأتى ذكرها تباعا :

١ - أنها كانت قادرة ليس فقط على جمع ثروات كبيرة بل وأيضا على اقامة علاقات تجارية مع الاقطار المجاورة .

٢ - ان نشاطها التجارى كان متعدد فلم يكن لها فرع واحد تتخصص فيه .

٣ - ان مجال عملها كان الوساطة بصفة أساسية بمعنى أنها كانت تقوم بعملية تخزين ونقل لسلع واردة من الخارج ثم يعاد تصدير معظمها او يوزع جزء منها فى السوق الداخلى ، وكان السوق الداخلى بالنسبة لها يتركز فى طقة الحكم والإدارة .

٤ - أنها كانت تملك الكثير من الوكالات فى المدن المصرية والوكالات خارج مصر وأنها ملكت القدرة على تجهيز حملات حربية (كما حدث بالنسبة للمحروقى مع محمد على) .

٥ - أنه رغم تعرض الكثير منها للآزمات الاقتصادية والمصادرات إلا أن الكثير منها كان قادرا على النهوض من كبوته ، وكان هناك الكثير من التضامن والتكافل بين أفراد هذه الطبقة .

٦ - أن هذه الطبقة رغم غياب عنصرى الاقتصاد الرئيسيين وهما الزراعة والصناعة - مما يجعل من المستحيل استمرار القطاع التجارى - إلا أنها استمرت حتى مجئ نظام (محمد على) مما يؤكد قدرات هذه الطبقة وامكانياتها وذكاءها .

٧ - أن هذه الطبقة كانت على علاقة طيبة بالسلطة تمثل ذلك في علاقتها بالإدارة العثمانية أو المملوكية أو حتى الحملة الفرنسية .

٨ - كانت هذه الطبقة البورجوازية بعيدة عن استغلال العامة ويمكن أن تؤكد أنها فعلا كانت في تصرفاتها وطنية فكثيرا ما قادت التحرك الوطنى وتزعمت ثورات مصرية صميمة .

٩ - حاولت الطبقة البورجوازية التشبه بالطبقة التركية والمملوكية الحاكمة في كثير من تصرفاتها وسلوكها .

١٠ - كان هناك تعاطف اسلامى وتكافل اجتماعى بين الطبقة البورجوازية غطاءه العامل الدينى ، ولذا لم تحقد طبقة العامة على غنى الطبقة البورجوازية طالما كانت الطبقة الاخيرة واعية لدورها الوطنى والاجتماعى .

١١ - كانت البورجوازية المصرية التجارية متمثلة فى عائلات فلم تكن الصورة فردية بل كان أبناء التجار يتوارثون نفس المهنة التجارية عن آباءهم مثل عائلة المحرقى (أحمد المحرقى ثم ولده محمد) وعائلة الشرايين وعائلة محرم .

١٢ - كانت هذه الطبقة البورجوازية طبقة مثقفة حريصة على العلم جنبا الى جنب مع الفنى والجاه فلم يخل منزل بورجوازى مصرى من وجود مكتبة عامرة نفيسة مليئة بالكتب النادرة ولا يمتنع عنها مطلع أو قاصد .

نماذج من البورجوازية المصرية التجارية :

جاء فى الجبرتى الكثير من الكلام عن «مسائر الناس» والاعيان وكبار القوم فذكر تراجم لعدة شخصيات مصرية ولا يتسع المقام لذكر الكثير منها ومن ثم سنمر عليها الا أننا سنهتم ببعض من هذه الشخصيات البورجوازية والتي لها تأثير كبير أو عمرت طويلا .

ومن أفراد هذه الطبقة البورجوازية التجارية نذكر مثلا «الخواجهات جمال الدين الذهبى» شهندر التجار الذى ورد ذكره بأن له الكثير من الوكالات والمنازل وعلى قدر كبير من الثروة والجاه ، وقد جاء فى احدى وثائق المحكمة الشرعية انه اشترى منزل الشيخ حسن الجبرتى أفندى والد المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى فى الصنايقية ، وهناك حسين الدالى ابراهيم وهو تاجر من تجار خان الخليلى ، وقد غضب عليه الوالى فامر بسجنه ولكن تشفع له الشيخ أبو الأنوار السادات فاطلق سراحه بعد دفع فدية كبيرة . ونذكر ايضا مصطفى عبد الله التاجر فى رشيد والذى استضاف الألفى بك الكبير عند رجوعه من لندن مما يؤكد انه كان ذا جاه وثروة وعلى قدر كبير من الفنى .

وهناك الخواجا محمود حسن التاجر والذي كان يملك ذهبيات وله وكالات وقد كان على علاقة طيبة بالالفي الكبير وساعده بمده بعض المراكب في النيل عند عودته من لندن لاستعادة مكانته بعد تديري مؤامرة ضده لقتله .

ونذكر الحاج مصطفى البشتيل ويرجع اصله الى قرية « بشتيل » بجوار امبابه ، وكان يعمل في تجارة الزيت وله وكالات ضخمة في معظم المديرية وبالدات الاسكندرية وقد كان ضمن من قادوا ثورة القاهرة الثانية ومعه السيد عمر مكرم والسيد أحمد الحرقى وقد انتهت هذه الثورة بالفشل حيث قتل البشتيلي وهرب الحرقى - كبير التجار الى سوريا - وصادر الفرنسيون اموالهم .

وكانت هناك عائلات بورجوازية كبيرة في مجال التجارة نذكر منها «عائلة الشرايبي» واشهرها في ذلك العصر الخواجا (الحاج) أحمد بن محمد الشرايبي الذي كان من اعيان القاهرة ، فقد كان من بيت مجد وثراء بلغ الغاية في ثروته وجاهه وسماحته وكان له بيت مشهور في الازبكية وكان من هذه العائلة يوسف الشرايبي وقد كان في غاية الثراء والرفاهية .. والاحسان للخاصة والعامة ويتردد الى منزله العلماء والفضلاء . وكان امراء مصر وبخاصة الامير رضوان كتخدا من زوار هذا السيد وكذلك ادباء مصر وشعراؤها وقد مات هذا السيد عام ١١٧١ هـ .

وهناك عائلة «محرم» ومنها «أحمد محمود محرم» وقد اختاره بونابرت ضمن الديوان الخصوصي وكان يعمل في وظيفة المحتسب وكانت له علاقات تجارية ولديه ثروة ضخمة وقد توارث ابناءؤه مهنته .

وكان هناك حسن طوبار من المنزلة وقد ملك أسطولا كبيرا من مراكب الصيد قدر بحوالى ٥٠٠ مركب زد على ذلك عددا لا بأس به من مصانع لنسج القطن ومن المتاجر وكانت له ضياع ضخمة في المنزلة ، وهذه الثروة الكبيرة كان يحسب لها حساب لدرجة ان الفرنسيين كانوا يخشون بأسه لعظم نفوذه في منطقته ، ومن أشهر تجار تلك الفترة ايضا الشيخ مصطفى الصيرفي ، وكانت له تجارة مع السعودية واليمن (اي بلاد العرب) وكان من أشهر تجار وكالة الصابون السيد «أحمد الزرو» حيث كانت له ديون على التجار بلغت ١٠ آلاف ريال ، ومن المهم أن نذكر أنه كثيرا ماقامت صفقات مشتركة بين هؤلاء التجار ، فالجبرتي يحدثنا أنه في ٥ من جمادى الاولى سنة ١٢١٥ هـ تحاسب السيد أحمد الحرقى مع السيد أحمد الزرو على شركة بينهما .

ويجب أن نذكر شهندر التجار «أحمد بن عبد السلام» فقد كان له باع طويل في العمل التجارى . ولعل عائلة الحرقى مثلا نادرا للأسرات المصرية الحاكمة من التجار وكان عميدها السيد أحمد الحرقى والذي زاد نفوذه باتساع تجارته مع مختلف الاقطار الشرقية والأوربية وقد تعامل مع جميع تجار مصر ونواحيها وجميع الامصار الاسلامية وذاع صيته بين الاقطار الحجازية والسورية والرومية فراسلوه وخلصوا عنده ودائعهم وكان محبوبا من الجميع ، وقد ضاقت باحماله وبضائمه الطرقات .

البورجوازية المصرية الفكرية ذات الرخاء الاقتصادي :

لم نجد خيرا من ذلك العنوان لنطلقه على طائفة العلماء التي عاشت في مصر عصر الجبرتي والتي شاركت في الحياة الاجتماعية وامتنت الى جانب عملها كعلماء مهنا أخرى

درت عليها ثروات طائلة - باستثناء أساتذة الأروقة في الأزهر - تجعلنا نضعها بلا تردد ضمن طبقة البورجوازية المصرية وهى وان كانت بأفكارها أيضا تمثل نوعا من التمسالى الطبقي الا انه من الاكيد انها بشرائها ودخلها الكبير كانت تتمتع برخاء اقتصادى لم يمنح لغيرها حتى ولا لطبقة التجار نفسها - قمة البورجوازية المصرية في ذلك العصر - ولعل ذلك يرجع بصفة أساسية الى علاقة هذه الطبقة بالسلطة وفي نفس الوقت الى خوف السلطة منها واستخدام السلطة لها لتكون وسيطا يقيها «شر» ثورات العامة ، وايضا لعدم مصادرة السلطة لثرواتها - عكس طبقة التجار والتي كانت تتعرض باستمرار لعملية المصادرة - المتراكمة ولوقف الكثير من الدخول عليها وبالذات من دخول الأرض في نفس الوقت الذى لم تكن تحصل فيه ضريبة على دخلها ..

ولم تكن هذه الطبقة وهى طبقة العلماء بعالمها الخاص وغناها بعيدة عن الواقع الاجتماعى ، فكثير منها كان واسطة بين الرعية والحكام ولكن الكثير ايضا كان يحتقر تصرفات العامة وان كان لا يعلن ذلك حتى يتقى غضبها وان كان العلماء يتمتعون باحترام الشعب الا أن البعض منهم لم يسلم من أذاه لتحيز العلماء في بعض الأحيان لرجال السلطة وظهر ذلك واضحا بعد قدوم الحملة الفرنسية .

وقبل ان نذكر نماذجاً للعلماء وثرواتهم ومهنتهم يحسن بنا أن نتكلم عن مصادر أرزاقهم خارج قناة التجارة ، فقد كان السلطان العثماني يهدى رجال الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمر بمرتبات تصرف من «الضربخانة» وكان يجارى السلطان العثماني في ذلك سلطان المغرب ، وقد بقى نظام الأوقاف محبوبا على معاهد التعليم والعلماء وكانت ترصد لهم أوقاف معينة بل لقد كان بعض الأمراء والمماليك يحرصون على حضور دروس العلماء في المجالس الخاصة وفي المدارس وكثيرا ماكانوا ينعمون على العلماء المنح والهدايا من وقت الى آخر . وسنحاول أن نذكر البعض من العلماء وان كنا سوف نسلط الضوء على البعض الآخر لأهميته .

وقد تركزت طبقة العلماء في علماء الأزهر بصفة أساسية والكثير من العلماء كان يمارس الأعمال التجارية أما باسمهم أو بأسماء زوجاتهم أو أقاربهم نذكر من هؤلاء الشيخ يوسف المصليحي والشيخ اسماعيل البراوى والشيخ محمد الجوهري والشيخ عبدالوهاب الشبراوى ، وهناك الشيخ محمد المهدي الذي كان سكرتير الديوان الذى أنشأه بونابرتة وقد أقام وليمة عرس لزوج أحد أولاده ودعا صارى عسكر الفرنسيات وأعيان الفرنسيين لهذا العرس وكبار أعيان المحروسة ومدت الموائد وأقيمت الولائم أكثر من ثلاثة أيام مما يدل على الوفرة والرخاء .

والشيخ محمد المهدي هذا قال عنه بونابرتة وعن زميله الشيخ الصاوى أنهما ليسا «بونو» يعنى ماهم طيبين ، والشيخ محمود الكردي الذى كان محسنا على الفقراء والمساكين والذى قيل عنه أنه «أما مسك بيده درهما ولا دينار قط» وقد لحق بربه عام ١١٩٥ هـ .

والشيخ على البيومي الذى كان ذا واردات وفيوضات وألف عدة كتب وكان من زواره مصطفى باشا من قبل السلطة العثمانية ، والشيخ عبد الله الادكاوى من أدبو وكان له ثروة ضخمة وكان محسنا كبيرا وكثيرا ما كان يقرض الشعر . وهناك الشيخ موسى السرسى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ عبد الفتاح

الجوهري وكانت لكل منهم اوقاف كبيرة ، ولهم دراية وخبرة في شئون التجارة التي كان يمارسها اقرباؤهم .

ويمكن أن نصيف الى هؤلاء اسماعيل الخشاب والذي كان أحد مشايخ الأزهريين الى جانب أنه كان شاعرا رقيقا وقد توثقت الصحبة بينه وبين الجبرتي وقد عهد الفرنسيون الى الخشاب بتحرير مواد الصحيفة اليومية التي أصدروها والتي عرفت باسم «التنبيه» وكان اسماعيل الخشاب هو الذي قدم الجبرتي الى الفرنسيين وجعله قادرا على التواجد بقربهم لدراسة الكثير من احوالهم مما سهل على الجبرتي الكتابة عنهم .

وايضا هناك الشيخ حسن المطار والذي كانت تربطه علاقات اخاء مع عبد الرحمن الجبرتي أيضا ، واشتهر منهم أيضا الشيخ الحفني الذي كان يعاصر على بك الكبير وهو محمد ابن سالم الحفني وكان زاهدا ورعا كريما كثير اللبذل للفقراء واتخذ سبيل الدعوة الى الخير على طريقة صوفية اسمها الطريقة «الخلوتية» .

وقد قال عنه الجبرتي «انه كان قطب رحي الديار المصرية لا يتم أمر من أمور الدولة الا باطلاعه ومشورته» ولما توفي الشيخ الحفني حل محله في زعامته واعظ آخر وهو «ابن النقيب السيد على بن موسى» .

وهناك الشيخ على الصعدي وكان يندخل لصالح الناس وبلغ من اكرام على بك الكبير ومحمد بك ابو الذهب أنهما كانا اذا دخل الشيخ على الصعدي عليهما مسحا له وقبل يده ولم يردا له شفاعا ، ومنهم السيد محمد السادات سليل بيت السادات العربي ، الذي جمع بين العلم وشرف النسب فضلا عما ورثه عن أسلافه من الثروة والجاه وقد تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجاداتهم على عهد على بك الكبير وكان نافذ الكلمة عظيم المكانة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية أو خلالها أو بعد انتهائها .

واختير الشيخ عبد الله الشراوي رئيسا للديوان الذي كونه بونابرت ، وفي سنة ١٢٠٨ هـ تولى مشيخة الأزهر فعمقت مكانته وكان أمراء المالك يحترمونه ويخشونه واه في مقاومة مظالمهم مواقف ماثورة تدل على مبلغ ما له من النفوذ والجاه فقد قاد الحركة التي قامت لمناهضة المالك في تعسفهم في فرض الضرائب والمكوس وغير ذلك من المظالم ، وقد جمع بين رئاسة الديوان ومشيخة الأزهر وكان له مع الفرنسيين شأن كبير فقد غضبوا عليه ثلاث مرات ، الاولى في عهد بونابرت حينما رفض أن يردى شارة الجمهورية الفرنسية ورمى بها الى الارض فغضب عليه بونابرت وقال انه لا يصاح لرئاسة الديوان ، والثانية في عهد ميتو حيث ارتابوا في موقفه بعد مقتل كليبر لان القاتل كان يقيم في الأزهر والثالثة في عهد مينو أيضا حيث اعتقله في القلعة عندما وردت الاخبار بقدوم الجيش العثماني بقيادة يوسف باشا واحتلاله العرش .

وكان العالم بمجرد أن يجمع ثروة كافية يستثمرها في عقارات مدنية وهذه العقارات الثابتة كانت بشكل عام الصورة للاستثمار حيث كان يمثل في البداية المسكن الخاص ثم تطور الأمر فاصبح هناك حوانيت متنوعة الأحجام لبيع السلع المصنوعة بدلا من الأماكن التي كانت تصاغ فيها وكانوا يتاجرون على المستوى الداخلي في المواد الغذائية وعلى المستوى الخارجي في استيراد البن مثلا وكان هذا أعلى درجات الاستثمار اذ انها كانت تتطلب قدرا من رأس المال وصلات وثيقة بالتجار .

ولو بحثنا عن مصدر الثروة الأساسية للعلماء لوجدناه في الأوقاف وفي أطياف الرزقة التي كانت تعطى لهم من السلطات الحاكمة دون أن يدفعوا عنها مالا ومن كونهم واسطة لقضاء حاجات الناس وكان كثير من العلماء يعتمدون على أمراء الممالك لأغاثتهم وكان أمراء الممالك يعتمدون على العلماء كصلة بينهم وبين الأهالي ولم تتم صور استقلالهم واستثماراتهم في المجال التجارى الا في نطاق محدود ، ذلك أنهم كانوا بعيدين عن المغامرة فى مشروعات اقتصادية غير الأرض او العقار او التجارة المربحة نتيجة سرعة دوران رأس المال والمضمون عنصر المخاطرة فيها .

ولقد وصلت قوة طبقة العلماء الى حد أنهم كانوا يتدخلون لانفاذ أولاد الأمراء المالكين ونساءهم من بينهم كجوارى ، وقد وصلت قوة السيد عمر مكرم الى حد أن محمد على باشا عينه نائباً عنه وكانت مدينة دمنهور في التزامه . بقى أن نتكلم عن نقابة الاشراف كفة من العلماء وسوف نذكر منهم فقط اثنين الأول هو السيد عمر مكرم والذي خلفه وهو الشيخ خليل البكرى .

أما عن السيد عمر مكرم فقد كان نقيب الاشراف عند مجيء الحملة ، ونقابة الاشراف مركز اجتماعى ودينى واقتصادى يرصد للمسئول عنه الكثير من الأوقاف وله الكثير من الرواتب والهدايا ويحوز احترام العامة والخاصة ، وقد غادر مصر الى سوريا عقب موقعة الاهرام فخلت بذلك نقابة الاشراف من النقيب وعين الفرنسيون بدلا منه السيد خليل البكرى ، وكان أول ظهور عمر مكرم على مسرح السياسة المصرية حينما حمل الى حسن باشا القبطان - القائد العثماني - كتابا من الممالك في اسبوط بعد أن هزموا اتباع حسن باشا وكان ذلك لواسطة الصلح بينهم وبين حسن باشا ، وقد خرج السيد عمر مكرم مع الجيش التركى وجيوش الممالك عند انسحابها من مصر بعد هزيمتها وشارك في ثورة القاهرة الثانية ولكنه فر بعد فشلها ، وقضى في نقابة الاشراف في دولة ابراهيم ومراد نحو خمس سنوات .

أما عن مدى اشتغال زوجات العلماء وأقاربهم بالتجارة فاننا نذكر أن زوجة الشيخ الشرفاوى كانت تدبر أمواله وتستثمرها له فقد اشترت عقارات وبيوتاً للتاجر ومنزلين للسكن بالإضافة الى حوانيت ووكالات وحمامات . أما زوجة الشيخ المهدي فقد استثمرت أمواله في تجارة القطن والأرز والكتان .

وعائلة البكرى كانت لها باع طويل في التجارة والصناعة فقد كانت تملك معمل تقطير لصناعة الخل وحانوتا مخصصا لصناعة الزيت وحانوتا لطحن البن وعدة مخابز ومقاه وبمضى متاجر لبيع الفلال ، وكان الشيخ محمد البكرى على صلات تجارية مع تجسار التجزئة والجملة وقبل أن يموت الشيخ البكرى ترك لورثته (والذين لم يكونوا بالضرورة شيوخا) ثروة ذات حجم كبير وعدد من الحوانيت والوكالات والحمامات بالإضافة الى منقولات وعقارات ثابتة ومجوهرات .

الجبرتي كنموذج للبورجوازية المصرية فكرى واقتصاديا :

من تتبع كتابات الجبرتي في الكتابين اللذين سطرهما بقلمه وهما «مظهر النقد» و «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» وان كان الثانى قد ضم فى طياته الكتاب الأول فى الجزء الثالث من تاريخه العام نخرج بتعليقات كثيرة عنه ولقد

كتب الجبرتي ترجمة لآبيه وأطال فيها وبألف في ديباجة ألقابه ومرادفات تشريفه حتى بلغت أكثر من ٦٠ لقبا ، والجبرتي مصري لاشك في ذلك وإن كانت أصوله السلالية ترجع الى بلاد زيلع بأرض الحبشة إلا أن استقرار عائلته في مصر لفترة طويلة وحبه لمصر جعله مصريا لاشك في ذلك .

ومع اشتغال والده بالعلم فإنه كان يعمل في التجارة أيضا وتلك هي سنة علماء مصر في القرن الـ ١٨ كله تقريبا حيث أن العالم كان لا يكتفى بدخله من راتبه أو وقفه الموقوف له من قيامه بالتدريس والتعليم ومن ثم نجد معظم علماء ذلك العصر يقومون بامتھان مھن أخرى خاصة وأن الظروف الخاصة للعلماء والتي كانت تجعل السلطة تنفرب لهم - تتضمن عن طريقھم السيطرة على العامة - كانت تمنعھم من مصادرة أموال العلماء أو الاستيلاء على أملاكھم أسوة بما كان يمكن أن تفاجأ به طبقة التجار .

فالشيخ حسن الجبرتي والد عبد الرحمن مؤرخنا العظيم ، كان يعمل في التجارة والبيع والشراء والمشاركة والمضاربة والمفايضة . وكان الشيخ حسن له صھر من الأتراك يعمل وأبيا على فلاح الطور والسويس والمويلح ، فلما مات سنة ١١٣٧ھ تقلد أعماله وحل في وظيفته ولبث بها فترة من الزمن ، وكان للشيخ حسن ثلاثة منازل في كل منزل جوارى من البيض والسود والجيش. ولما مات أبوه في عام ١١٨٨ ھ كان عبد الرحمن في الـ ٢١ وقد ورث كل تلك الثروة وذلك الجاه عن أبيه ، فالجبرتي إذن كان بورجوازيا في الدائرة الاقتصادية بحكم المولد وماكان يملك من ثروة ضخمة ووكالات وجوانيت ومنازل وتجارة ورثها عن أبيه . وكان الجبرتي ذكيا جدا حيث يقال أنه حفظ القرآن وسنه لاستجاوز الحادية عشرة وقد زوجه أبوه وهو في سن الرابعة عشر .

وكان لعبد الرحمن أرض زراعية موروثة في بلدة إبيار فكان يتردد عليها ويأشر شئونھا ، ولما أتت الحملة الفرنسية ترك القاهرة الى أرضه ولكنه عاد إليها بناء على دعوة صديقه اسماعيل الخشاب .

وعلى الرغم من الجبرتي قد ألقى أضواء ساطعة على البيئة الخاصة والبيئة العلمية التي نشأ فيها عند ترجمته لوالده الشيخ حسن إلا أنه لا يكاد يذكر شيئا عن حياته بعد ذلك ، فالجبرتي يختفي في عجائب الآثار اختفاء يكاد يكون تاما .

وإذا كانت الدلائل تؤكد حرص بونابرتة وخلفاؤه في الحملة على الاستعانة بالطبقة البورجوازية المصرية فيما يسمى بالدبوان الوطنى فإنه من البديهي أن يختار عبد الرحمن مضوا في الديوان الذى أنشأه الجنرال مينو .

وقد أورد الدكتور محمد أنيس في كتابه «حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي» مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية أن الجبرتي باع منزله في الصناديقية وفي العام التالى استرده وأنه في سنة ١٢٢٣ ھ اشترى منزلا آخر مجاورا للمنزل السابق .

وهذا يؤكد نراء عبد الرحمن نفسه ، وكانت جدة عبد الرحمن أم أبيه « الحاجة مريم » لها شأن كبير في نشأة الشيخ حسن وهى التى أوقفت عليه أوقافا كثيرة والوثائق تذكرھا باسم «المصونة الحاجة مريم» ويذكر الجبرتي في ترجمة لوالده : «وتزوج بنت جلبى ابن يوسف المعروف بالخشاب تابع كور محمد وهم بيت مجد وثروة بولاق» . وقد تزوج عبد الرحمن ثلاث نساء الأولى في سنة ١١٨٢ ھ والثانية عام ١١٩٥ ھ وهى أم «الولد خليل» ثم تزوج السيدة «شوق» وهى ابنة الشيخ نصار نجم .

ونستطيع أن نستخلص من كتابات الجبرتي أنه كان بورجوازي التفكير حيث تظهر اهتماماته بالكتابة عن الطبقة الراقية والأعيان أكثر من الاهتمام بالعامية والذين لم يغفل في ذكر أحدا منهم .

البورجوازية المصرية في مجال الادارة :

لم يعرف عن مصر أنها كانت تحظى بإيد مصرية صميمة تعمل في مجال الادارة ولكن يمكن أن نقول أنه حدث شيء من ذلك عند قدوم الحملة الفرنسية ولكن لم يستمر طويلا عقب خروج الحملة .

ومن هؤلاء السيد محمد كريم هو حاكم الاسكندرية ويرجع بأصله الاجتماعي الى بيئة تجارية حيث كان في أول أمره قبانيا يزن البضائع في حانوت بالشر وعنده خفة في الحركة وتودد في المعاشرة فلم يزل يتقرب الى الناس يحسن الود ويستجلب خاطر حواشي الدولة وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى ومن له وجهة وشهرة في أبناء جنسه ، واشتهر ذكره في ثغر الاسكندرية ورشيد وكان نائباً لمراد على الثغور وأصبح نافذ الكلمة ومحمد كريم له قصة مع الاحتلال الفرنسي فقد قاوم الحملة عند مجيئها الى درجة أن بونابرتة أعجب بشجاعته وعينه حاكما على الاسكندرية في عهد الحملة ولكنه لم يسكت عن مقاومة الفرنسيين ومن ثم ظل يحرض على الثورة ضدهم ويرسل مكاتيبه الى مراد بك يحث على الاجتهاد في حرب الفرنسيين فاشتد غيظ الفرنسيين منه الى أن انتهى الأمر بالقبض عليه وارسل للقاهرة حيث حوكم وطلب اليه ان يفدى نفسه فرفض ومن ثم أعدمه الفرنسيين ، وقد كان له ثروة ضخمة صادرها الفرنسيين .

وهناك محمد المسلماني الذي عينته الحملة الفرنسية بمثابة محافظ للقاهرة يجاور المحافظ الفرنسي لها .

ويمكننا أن نذكر الشيخ احمد العرايشي الذي نال الأغلبية في انتخابه من علماء الأزهر كقاضى قضاء مصر وكان أول قاضى مصرى يولى هذا المنصب بعد أن فر قاضى القضاة التركى عند قدوم الحملة الفرنسية وكان الشيخ العرايشي ضمن أعضاء ديوان بونابرت وله ثروة كبيرة .

ولا يفوتنا أن نذكر الكثير من مناصب شيخ البلد في القرى المصرية كان يسند الى المصريين وهؤلاء كانوا يكونون جزءا من الطبقة البرجوازية المصرية فهؤلاء فعلا بالنسبة لمستوى المعيشة كان يمكن اعتبارهم بورجوازيين بالنسبة لبقية الشعب ، فدخلهم كان لا بأس به كما أنهم كانوا يتمتعون بمركز وظيفي ولهم سلطة قد تكون بابا للرزق في وقت انعدمت فيه قوة السلطة المركزية ، وكان بعض مشايخ البلد المصريين في القرى يقوم بابواء عصابات النهب فتذكر منهم على سبيل المثال شيخ بلد «القرين» المسمى ابو خشبة .

البورجوازية الادارية والديوان الوطنى :

في ٢٨ ديسمبر سنة ١٧٩٨ م تأسس ديوان جديد لمصر بعد ان تعطل الديوان الوطنى الاول الذى اقامه بونابرت عقب ثورة القاهرة الاولى لمدة شهرين .

وقد عين الفرنسيون لهذا الديوان « ستين نفرا » منهم ١٤ يقال لهم الديوان الخصوصى وهم الذين يحضرون دائما ويقال لهم الديوان الخصوصى أو الديوان الديمومى والباقي بحسب الاقتضاء وتسمية الديمومى مأخوذة من كلمة دائم لانه كان يعتقد دائما وهو يطابق أيضا اسمه بالفرنسية

وقد ضم الديوان العمومى من المصريين ١٤ من العلماء ، ٢٦ من التجار والصناع والأعيان ، أما الديوان الخصوصى فقد كان من ضمن أعضائه خمسة من العلماء هم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدي والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ سليمان الفيومى ومن التجار اثنان هما السيد أحمد المحروفى كبير التجار والسيد أحمد محرم من تجار البن والبهار ..

ومن الجدير بالذكر ان بونابرت عند مجيئه اراد التقرب للمصريين ونجده يحاول اشراكهم فى الادارة والحكم ومن ثم يختار عشرة من العلماء ليكونوا بمثابة ديوان وطنى يعاونه فى دائرة الحكم نذكر هؤلاء المشايخ الذين لم يستمروا أكثر من ثلاثة شهور : - (صدر قرار تكوين هذا الديوان فى ١٧٨٨/٧/٢٥) .

كان الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للديوان ، والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العرايشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ محمد الدواخل أعضاء ، أما الشيخ محمد المهدي فقد اختبر سكرتيرا عاما لهذا الديوان .

ويمكن اعتبار هؤلاء ضمن أجهزة الحكم والادارة فى ذلك الوقت ومن ثم جمعوا بين بورجوازية التجارة والادارة الى جانب بورجوازياتهم الفكرية نفسها فى وقت انتشر فيه الجهل ولم توجد الاجهزة التعليمية أو القنوات القادرة على تعليم وثقيف الشعب بصفة عامة كما كانت الجماهير تعاني من الفقر الاجتماعى الى جانب الفقر الفكرى .

أهل الذمة فى مصر كبورجوازية مصرية :

لم تعرف مصر التعصب الدينى وعاش فيها أهل الذمة متآخين مع المسلمين فيها ، وكان الاضطهاد لأهل الذمة يحدث من بعض الأمراء المماليك أو من بين العثمانيين .

ورغم أن نابليون حاول القيام بفرقة اجتماعية واعطاء بعض المناصب الادارية لأهل الذمة وتنصيبهم كجاة ضرائب ضد المسلمين الا أن ذلك لم يؤد الى فتنة طائفية لأن عدد من انصاعوا للحملة كان قليلا وكان أكثر من تعاونوا معها من الاروام وأهل الشام وكان عدد من خان القضية من أهل الذمة المصريين قليلا ولقد كان أهل الذمة يعيشون فى بحبوحة من العيش وذوى دخل مرتفع ولكنهم كثيرا ماتعرضوا للمصادرة ونهب أموالهم أسوة بكبار التجار المصريين .

وأهل الذمة كانوا يعملون فى الشؤون المالية فى مصر ومنهم من حاز شهرة عالية وكون ثروة ضخمة وأصبح واقعا وفلا ضمن الطبقة البورجوازية المصرية فى ذلك الوقت ونذكر من هؤلاء المعلم غالى كاتب الألفى بك والذي كان يسكن الجيزة وكانت له ثروة ضخمة وكان له كثير من الأتباع والجوارى وتابعان يقومان بتصرف أعماله .

ولقد كان الكثير من أهل الذمة ذوى الدخل المرتفع يملكون أكثر من كبار اليسار

المصريين ونذكر منهم المعلم واصف كبير المباشرين وكان خبيراً بشئون ايراد البلاد ومتصرفاً وبيده نسخ من سجلات الروزنامة عالماً بالكليات والجزئيات ومع ذلك فقد كان أهل الذمة كثيراً ما يتعرضون لمصادرة ونهب أموالهم أيام الحملة الفرنسية وأيام العثمانيين .

وقد نكس كبير الاقباط في عهد حسن باشا القبطان وهو المعلم ابراهيم الجوهري وكان رئيس الكتبة والزعيم المالى للأقباط وقد أدرك من النفوذ والصيت والشهرة ما لم يسبقه اليه أحد من أهل الذمة وقد نما ذكره في أيام محمد بك أبو الذهب ، فلما أصبح ابراهيم بك الكبير شيخاً على مصر قلده أمور الدولة المالية فكان هو المشار اليه في كل صغيرة وكبيرة حتى دفاتر الروزنامة والميرى وكان جميع الكتبة والصيارف تحت رئاسته وكان سياسياً ذاهية لا يرغب عن بآله شيء يداوى كل واحد بما يليق به ويعاين ويهادى قاطبة الناس وكان يرسل الهدايا الثمينة والشموع الى بيت الأمراء فإذا جاء شهر رمضان حمل الى الكبراء الشموع والأرز والسكر والكساوى وعمرت في أيامه الكنائس والأديرة وأوقف عليها كثيراً من الأراضي والمرتبات والفلال وقد مات في عام ١٢٠٩ هـ وحزن عليه ابراهيم بك الكبير وخرج الى قصر العيني ليشهد جنازته وأسف على فقدته اسفاً شديداً .

ونذكر منهم جرجس الجوهري كبير المباشرين عند قدوم الحملة الفرنسية وقد أبغاه نابليون في منصبه ، وقد وصل الى أعلى مراتب النفوذ ولكنه لم يسلم أيضاً من تعرضه لمصادرة بعض أمواله على عهد الحملة الفرنسية أيام الغرامة التي فرضها كليبر بعد ثورة القاهرة الثانية .

وبعد ذلك العرض السابق ذكره نود أن نؤكد أن الملكية العقارية كانت عنواناً للثراء بالنسبة لهذه البورجوازية كما أن أيا منهم كان له أكثر من منزل وكانت عملية الانتقال من منزل الى آخر عادة متصلة في نفوس البورجوازية المصرية ، ولقد كان في كل بيت من بيوت الطبقة البورجوازية والاعيان مطبخان أحدهما أسفل الدار أعد لفداء الرجال وضيوهم والثاني أعلى الدار وقد أعد للنساء فكان السماط يوضع ظهر اذا حان الفداء ليلاً للعشاء وكان مبدولاً للناس يجلس في صدره رب البيت وحوله ضيوفه .

وكان في كل بيت أيضاً ثلاثة مدافن أحدها للرجال والثاني للنساء والثالث للجوارى والعبيد .

وكانت الطبقة البورجوازية تشكل طبقة استهلاك ترفهية ملكت العقارات للسكن وبنت القصور .

ولقد كانت الحملة الفرنسية خراباً اقتصادياً على العلماء وغيرهم حيث أن العلماء والمشايع لم يسلموا أثناء الحملة الفرنسية من دفع غرامات فقد فرض على كل شيخ من شيوخ الأزهر جزء من الغرامة التي فرضت على مصر .

لقد كان التجار بمثابة الوعاء الذى يمكن أن تفرخ فيه البورجوازية بلزوراً تنمو ولكن ظروف مصر الاقتصادية بقدوم الحملة الفرنسية قضى على هذا الأمل ، وحتى أهل الذمة لم يسلموا من أذى الحملة الفرنسية لقد جاء في أحداث ٢ سبتمبر ١٧٩٩ أن كبير الفرنسيين طلب من التصارى القبط مائة وخمسين ألف ريال وكان العثمانيون بعد خروج الفرنسيين أكثر استبداداً

وفسوة «حيث كان جنود العثمانيين ينتشرون بين جمهور الناس وارباب الحرف منهم فكان احدهم يقف بـدكان الخياط او صاحب مشرب القهوة ويعلق سلاحه ببابه كانه شريكه في مهنته ومن سماجته انه كان يحاسبه على ما كسب ويقاسمه » .

لقد كان الحكم العثماني حكما ضعيفا لم يحدث تغيرا جذريا في حياة المجتمع المصرى رغم بقاءه ما يقرب من ثلاثة قرون هذه الحقيقة الى جانب العزلة التى فرضت على المجتمع المصرى سواء من قبل العثمانيين او بسبب تحول طرق التجارة العالمية عن الشرق الادنى الى طريق رأس الرجاء الصالح كل ذلك قلل من فرص تراكم رأس المال هذا كله بالإضافة الى الصراع المملوكى سواء فى دائرته الخاصة او بينه وبين السلطة العثمانية ، لقد كان جنود المماليك ينهبون مصوغات الذهب والفضة من الصاغة ونفائس الأقمشة نهارا جهارا من متاجر خان الخليل والغورية هذا كله الى جانب الاتاوات التى كانت تفرض والضرائب التى لا حصر لها .

ومع اختفاء سلطة القانون التى تجعل رأس المال يطمئن الى الاستثمار ومع ظروف المجتمع المصرى ذاته سواء فى حركته الانتاجية او تحركاته الآلية داخل عملية الانتاج حيث لم تستخدم الآلة الا نادرا ومن ثم فلا عجب الا نرى بذورا للبرجوازية المصرية على نطاق واسع باستثناء طبقة الأمان وهى طبقة العلماء ، وتكنها فى النهاية ليست طبقة استثمارية فى ظل ظروف دولة علمانية كالتى أنشأها محمد على ، كما ان نظام الاحتكار الذى ابتدعه محمد على كان كافيا بتحطيم فئة التجار التى بدأت تظهر .

ومع كل ذلك فانه لا يمكننا أن ننكر وجود بورجوازية مصرية كتب عنها الجبرتى بل اننى أعتبر الجبرتى نفسه كان بورجوازيا فى الفكر وفى الثروة .

وان هذه البورجوازية لها سمات خاصة وذرتها الجبرتى وترجم للكثير من عناصرها وساهمت فى الحركة الوطنية ووقفت مع الشعب ضد السلطة الجائرة .